و ماسواها (230)

رؤية نفسية في المجتمعات العربية!!(1)

د. صادق السامرائي- الطب النفساني، العراق / أمريكا
sadiqalsamarrai@gmail.com

قد لا يتفق الكثيرون مع القول بأن أنظمة الحكم مرآة المجتمعات , والكراسي تعبّر عما فيها من المطمورات , والطغاة من منتوجات المجتمعات التي يتحكمون بمصيرها , وأن المجتمع أنى يكون تتحقق الولاية عليه , فالإرادة الجمعية يمكنها أن تتركز في إرادة فردية أو حزبية مطلقة.

فالمجتمعات طاقة دائبة المسير على سكة إرادتها , ولا يمكنها أن تمضي بإنسيابية على سكة أخرى لا تنتمي إليها , ولهذا فأن الذين يتهمون المجتمعات بأنها السبب فيما هي عليه من حال وأحوال ربما يقتربون من الصواب.

والواقع البشري يكشف قدرات البشر على بناء ما يريده , عندما تتوفر لديه الآلية لإنجاب القوة المتمكنة من إستيعاب ما فيه وترجمة طموحاته وتطلعاته , والعمل على صناعة حاضره الأفضل ومستقبله الأزهر.

وعندما نقارن ما بين مجتمعات الدنيا نجد أجوبة لا تحصى على ما هي عليه وما آلت إليه , وهي ديناميكيات متفاعلة ومتشابكة ومعقدة وذات نتائج متوافقة مع عناصر تفاعلاتها , وعواملها المساعدة المساهمة في تعجيل صيرورتها النهائية.

وهذه بعض الإقترابات التحليلية النفسية لمجتمعات بشرية وعربية , قد ينفع ما يتمخض عنها من رؤى وإستنتاجات ربما تساهم في إعادة تشكيل الوعي الجمعي العربي.

قد لا يتفق الكثيرون مع القول بأن أنظمة الحكم مرآة المجتمعات , والكراسي تعبّر عما فيها من المطمورات , والطغاة من منتوجات المجتمعات التي يتحكمون بمصيرها

هذه بعض الإقترابات التحليلية النفسية لمجتمعات بشرية وعربية , قد ينفع ما يتمخض عنها من رؤى وإستنتاجات ربما تساهم في إعادة تشكيل الوعي الجمعي العربي

أولا: مجتمعات ذات مقام وأخرى حطام!!

زنبابوي التي ثارت وتحررت بقيادة موغابي المتمسك بالحكم رغم بلوغه من العمر عتيا , إنقلبت الإرادة الوطنية عليه , وقام الجيش بالعمل على إحداث التغيير , ومضت الأمور بتفاعلات حضارية ذات قيمة وطنية وإنسانية رفيعة السلوك , لتشير إلى وعي المجتمع ووحدته وإعتزازه بقيمه الوطنية العليا التي تأتي أولا , ولا يمكن لقيمة أخرى أو مسمى أن يعلو عليها.

إنها مجتمعات ذات غيرة وطنية عالية وتطلعات إنسانية سامية , تريد أن تبني بلادها بمهارات معاصرة وبقدرات شبابها وأجيالها المتفاعلة , فهي لم تهن أو تذل رئيسها وأحد رموز ثورتها التحررية , وإنما تعاملت معه بأخلاق وطنية وثورية وحضارية سامية , فهي لا تلغي دوره وتأريخه وتتهمه بما يسيئ إليه ولتأريخه النضالي وقيادته للثورة الزمبابوية , وإنما تفاعلت معه بإحترام وتقدير ووفرت له الحصانة الكفيلة بالحفاظ على قيمته ودوره وأهميته في مسيرة التأريخ الزمباباوي.

زنبابوي التي ثارت وتحررت بقيادة موغابي المتمسك بالحكم رغم بلوغه من العمر عتيا , إنقلبت الإرادة الوطنية عليه , وقام الجيش بالعمل على إحداث التغيير , ومضت الأمور بتفاعلات حضارية ذات قيمة وطنية وإنسانية رفيعة السلوك

هي لم تهن أو تذل رئيسها وأحد رموز ثورتها التحررية , وإنما تعاملت معه بأخلاق وطنية وثورية وحضارية سامية , فهي لا

هذه مجتمعات تستحق التقدير والإحترام من القوى الفاعلة في الأرض , لأنها إستطاعت أن تؤكد

الإرادة الشعبية الجماهيرية الوطنية بصيغ حضارية ديمقراطية , ذات تأثيرات إيجابية وإمتدادات أخلاقية سامية التطلعات وهي تقدم قدوة حسنة للأجيال الصاعدة.

وهذا فرق واضح ما بين ما تؤول إليه السلوكيات السياسية التي بهذا الحجم , فعلى سبيل المثال ما حصل في العراق يوم الرابع عشر من تموز عام ألف وتسعمائة وثمان وخمسين , قد وضع الأسس للسلوكيات اللاحقة , والتي ما حادت عن ذلك اليوم الدموي الفظيع , وبسببه لا تزال نواعير الهلاكات تدور وأقبية السجون يتعالى فيها الصراخ والأنين.

وفي واقعنا العربي لم تتحقق حركة تغيير دون ويلات وتداعيات سلبية , وكان أرقاها وأكثرها حضارية ما حصل في تونس , أما في غيرها من البلدان العربية فأن التفاعلات كانت تجري بوحشية وإنفعالية وإندفاعية سوداء التوجهات.

وهذا فارق حضاري أساسي ما بين المجتمعات التي تتميز عن بعضها بمفردات ومبادئ التواصل الحضاري مع عصرها , فالتي تتتواكب بقيم وأخلاقيات إيجابية تتقدم وتكون , والتي تتمسك بالسلبيات والتفاعلات العدوانية تتفسخ وتهون.

وما يميز مجتمعاتنا أنها تتوحش وتتمزق وتتماحق , كما يجري في اليمن , التي ما تمكنت قيادتها التي تغيرت أن تستوعب المرحلة وتتصرف بوطنية عالية , ونزاهة قيادية ذات قيمة ومنفعة للأجيال الصاعدة , فأخذت البلاد والعباد إلى ما هي عليه اليوم من مسيرات الهلاك والدمار الفتاك.

إن المجتمعات التي تعلي قيمها الوطنية وتضع الوطن أولا , وتحرص على أجيالها تتصرف مثلما تصرف الزمباباويون , والذين لا تهمهم أوطانهم يتصرفون مثل العديد من دول المنطقة العربية , التي تتلاحى فيها الموجودات وتتهالك وتتهاوى في متاهات الوعيد المبيد.

ثانيا: مجتمعات شمعية!!

تبدو مجتمعاتنا وكأنها شمعية الطباع والأحلام والأهداف والطموحات والتصورات والمعتقدات والتفاعلات.

أي أنها لا تصمد أمام ما تريد , وإنما كل ما نطقت به وحلمت وفكرت وناضلت من أجله , يبدو وكأنه قطعة شمع أذابتها حرارة الحياة وشمسها الساطعة.

وتجدنا اليوم بعد قرون دوّارة بالنوائب والنواكب , نعيد الكرّة ألف مرة ومرة , ونتحول إلى قطع شمع متناثرة , جاهزة للذوبان والإندساس في تراب الأيام.

فماذا حققت أحزابنا , وتحزباتنا , وفئوياتنا ومذهبياتنا ومعتقداتنا؟

هل هناك إنجاز يستحق الفخر ورفعة الرأس؟

ماذا أنجزت ثوراتنا القومية الوحدوية ذات الخطب الرنانة والشعارات البراقة؟

أ لم تكن قطعة شمع فذابت في سعير المعتركات؟

واليوم يصل بنا الحال إلى أرزء حضيض وأتعس قاع في تأريخ الأمم والشعوب , بعد أن تحولت مجتمعاتنا إلى طاقات لتدمير ذاتها وموضوعها وكل ما يمت بصلة إليها.

اليوم تحولت مجتمعاتنا إلى مستوطنات للأوبئة والجراثيم الفكرية والعقائدية , وعصفت فيها أعاصير الضلال والبهتان والإمتهان , حتى كره الإنسان وطنه وعروبته ودينه , فبسببها جميعا أصبح مأساة

تلغي دوره وتأريخه وتتهمه بما يسيء إليه ولتأريخه النضالي وقيادته للثورة الزمبابوية

هذه مجتمعات تستحق التقدير والإحترام من القوى الفاعلة في الأرض , لأنها إستطاعت أن تؤكد الإرادة الشعبية الجماهيرية الوطنية بصيغ حضارية ديمقراطية

ما حصل في العراق يوم الرابع عشر من تموز عام ألف وتسعمائة وثمان وخمسين , قد وضع الأسس للسلوكيات اللاحقة , والتي ما حادت عن ذلك اليوم الدموي الفظيع

في واقعنا العربي لم تتحقق حركة تغيير دون ويلات وتداعيات سلبية , وكان أرقاها وأكثرها حضارية ما حصل في تونس

تبدو مجتمعاتنا وكأنها شمعية الطباع والأحلام والأهداف والطموحات والتصورات والمعتقدات والتفاعلات

ماذا أنجزت ثوراتنا القومية الوحدوية ذات الخطب الرنانة والشعارات البراقة؟
أ لم تكن قطعة شمع فذابت في سعير المعتركات؟

دامية جائعة هائمة أسيرة الرعب والموت والتهجير والضياع.

فماذا أنجزنا؟

إنها الخيبات ومطاردة سرابات العصور والجنون العقائدي , الذي يسعى لحل مشاكل الذين ماتوا منذ آلاف السنين.

فهل سنصحو ذات يوم ونعي بأننا في مأزق إنقراض مبين , وأن علينا أن نتعلم مهارات الحياة , وننأى عن الإنهماك بصناعة الموت والدمار والخراب المشين؟!!

اليوم تحولت مجتمعاتنا إلى مستوطنات للأوبئة والجراثيم الفكرية والعقائدية , وعصفت فيها أعاصير الضلال والبهتان والإمتهان , حتى كره الإنسان وطنه وعروبته ودينه

ثالثا: مجتمعات أكون!!

مجتمعات تختزن طاقات تكوينية مطلقة لا تعرف النضوب والشُحة , وديدنها التكوّن المتواصل أو التكوين المستمر.

مجتمعات أكون هي مجتمعات تختزن طاقات تكوينية مطلقة لا تعرف النضوب والشُحة , وديدنها التكوّن المتواصل أو التكوين المستمر

وهي مجتمعات تتكوّن , بمعنى أنها تعيد تصنيع ذاتها وموضوعها ولا تستقر على حالة وتستنقع فيها , وإنما تترجم آليات المياه الجارية في عباب الأنهار الدفاقة المتوثبة , الواثقة بغداقة ما سيأتيها وبإمتلاء أوعية أعاليها.

والتكوين يعني التخليق والإبتكار والإختراع وترتيب عناصر الموجودات , وفقا لتفاعلات تنجم عن منتوجات أخرى غير مسبوقة , والتكوين ديدن الحياة وجوهر إرادة التطور والتغيير والرقاء والبقاء.

والتكوّن تجسيد لمفاهيم الجريان وقوانين الدوران وإرادة الديمومة والتسرمد المِعطاء.

واللغة العربية غنية بمفردات الصيرورات الدائبة , والتحولات المتواصلة المتوثبة للتعبير عمّا فيها من المكنونات الطاقوية.

لكل طاقة قانون يستوعبها , وحالما تتفاعل معه تؤثر في محيطها وتساهم في إستحضار ما يعزز تناميها وتطورها , وتحقيق ولادات متعاقبة وتطلعات واعدة ذات إتساع مطلق

فلكل طاقة قانون يستوعبها , وحالما تتفاعل معه تؤثر في محيطها وتساهم في إستحضار ما يعزز تناميها وتطورها , وتحقيق ولادات متعاقبة وتطلعات واعدة ذات إتساع مطلق.

والكلمات الدالة على الحاضر والمستقبل أي بصيغة المضارع لها قيمتها النفسية والسلوكية , وقدرتها على ضخ الأعماق بمعززات التفاعل الإيجابي مع الحياة , فكلمات مثل (أكون , يكون , تكون , نكون , أتكوّن , تتكوّن , نتكوّن , تكوين) لها تأثيرها التحفيزي الدافع للفعل الجاد والإجتهاد الأصيل , لأنها تستجمع طاقات الذات الفردية والجمعية وتصبها في مسارات الهدف وأوعيته , وبهذا تكون نتائجها ذات قيمة فعّالة في صناعة واقع الحياة المتكوّنة.

رابعا: مجتمعات اللاسؤال!!

مجتمعات اللاسؤال هي المجتمعات المتقدمة تسأل ولا تتحرج من طرح أي سؤال , لأن السؤال يفتح أنوار المعرفة ويساهم في تحقيق الثقافة والوعي وسلامة الفهم والإدراك

المجتمعات المتقدمة تسأل ولا تتحرج من طرح أي سؤال , لأن السؤال يفتح أنوار المعرفة ويساهم في تحقيق الثقافة والوعي وسلامة الفهم والإدراك.

وقد سعت هذه المجتمعات إلى تربية أبنائها وتعليمهم أهمية السؤال وقيمته , ودوره في إستحضار الأفكار اللازمة لبناء الحياة الأفضل.

أما المجتمعات المتأخرة فأنها تعيش في ظلمات ممنوع السؤال , وتتدثر بالحرام , فكل فعل محرم إلا ما يُراد لها أن تقوم به من أفعال لخدمة مالكها ومُصادر مصيرها وحقها في الحياة

ولا يمكن لأية خطوة فيها أو عمل أو إنجاز أن يكون بعيدا عن السؤال , حتى ما يجري في مجالسها السياسية المتنوعة وما يقرره قادتها يكون تحت أضواء السؤال.

ولا يمكن لأية خطوة مهما كانت صعيرة أو كبيرة إلا وأن يعقبها أو يسبقها سؤال لماذا وكيف وأين

عندما يتعلق الأمر بالدين في تلك المجتمعات , فأنها تكون خانعة راكعة تتوضأ بدماء

ومتى.

أما المجتمعات المتأخرة فأنها تعيش في ظلمات ممنوع السؤال , وتتدثر بالحرام , فكل فعل محرم إلا ما يُراد لها أن تقوم به من أفعال لخدمة مالكها ومُصادر مصيرها وحقها في الحياة.

وعندما يتعلق الأمر بالدين في تلك المجتمعات , فأنها تكون خانعة راكعة تتوضأ بدماء بعضها ولا تسأل , لأن السؤال كفر وإعتداء على حرمات الثوابت اللازمة لأخذ القطيع إلى حلبات الجزر المريح.

فالمجتمعات المتأخرة تعلمت كيف تطيع وتخضع , وتركع لأصنام القوة وجبروت الخشب المرصع بالخطايا والآثام , والمعبرة عن دورها في بناء عمارة المآسي والويلات والتفاعلات السلبية الضارة بالحياة.

وبين هذه وتلك لا يمكن المقاربة أو المقارنة , لأن المسافة طويلة وذات أجيال عديدة , وليس من السهل قفزها والتحدث بلغة العصر في مجتمعات تحثو على رؤسها التراب , لكي تمجد حالة ما أو تستحم بدمائها من أجل ما تراه يقربها إلى ربها.

وعندما يعيش إنسان من مجتمع متأخر في مجتمع متقدم ويتخلق بأخلاقه ورؤاه الحضارية , ويحاول أن يعبّر عن أفكاره وأرائه وفقا للمنظور الجديد الذي إكتسبه , فأنه يكون في محنة كبيرة ومأزق خطير , لأن المجتمع المتأخر مجتمع عاطفي إنفعالي يستلطف الجهل والعبودية لصنم من التراب أوالحجر أو الخشب , ولايمكنه بأي حال من الأحوال أن يرتضي الخروج من شرنقة الخنوع والتبعية , ولا يستطيع مواجهة النور والتفاعل مع الحياة من غير دموع ودماء وخضوع.

إن التساؤل قد يدفع إلى إستنهاض العواطف السيئة الكريهة التي تحقق تداعيات غير حميدة , وأذكر قبل سنوات طرحت سؤالا في إحدى المقالات , فأثار زوبعة ردود منفعلة , خلاصتها أن البشر لا يجوز له أن يسأل بحرية , وإنما للسؤال ضوابط ومعايير ومقتضيات وحدود من الواجب إتباعها , وإلا أصبح التساؤل منكرا أو مخالفا للقواعد والأصول والمعايير , التي تضبط الجماعة وتقيدها بما توارثته من ممنوعات ومحرمات.

فالسؤال يكون مصدر خراب وأداة هجوم وزعزعة فكرية ونفسية وعقائدية , ووفقا للكثيرين من أصحاب السيادة والقيادة , يكون السؤال إعتداءا سافرا على حرمات القوة أيا كان نوعها ورمزها.

نعم إن السؤال من المحذورات في المجتمعات المتأخرة , ومن الحقوق الإنسانية وعلامات التعبير عن الحرية في المجتمعات المتقدمة.

وعليه فأن السؤال قد يؤدي إلى عواقب وخيمة وتداعيات خطيرة , وما علينا إلا أن نحذر التفكير بالسؤال , ونسبّح بالسمع والطاعة والخنوع والخضوع المطلق للسيد الكبير صاحب النفوذ وتقريرالمصير.

وبسبب منع التساؤل والسؤال , أسهمت المجتمعات المتأخرة في صناعة الطغاة والمستبدين الذين فتكوا بها فتكا مروعا وخطيرا.

فلا تسأل واخضع لطاغية يشك فيك , ومن حقه فقط أن يسأل ويتهم ويتحكّم بمصير البلاد والعباد!!

بعضها ولا تسأل , لأن السؤال كفر وإعتداء على حرمات الثوابت اللازمة لأخذ القطيع إلى حلبات الجزر المريح

عندما يعيش إنسان من مجتمع متأخر في مجتمع متقدم ويتخلق بأخلاقه ورؤاه الحضارية , ويحاول أن يعبّر عن أفكاره وأرائه وفقا للمنظور الجديد الذي إكتسبه , فأنه يكون في محنة كبيرة ومأزق خطير

المجتمع المتأخر مجتمع عاطفي إنفعالي يستلطف الجهل والعبودية لصنم من التراب أوالحجر أو الخشب , ولايمكنه بأي حال من الأحوال أن يرتضي الخروج من شرنقة الخنوع والتبعية

نعم إن السؤال من المحذورات في المجتمعات المتأخرة , ومن الحقوق الإنسانية وعلامات التعبير عن الحرية في المجتمعات المتقدمة

بسبب منع التساؤل والسؤال , أسهمت المجتمعات المتأخرة في صناعة الطغاة والمستبدين الذين فتكوا بها فتكا مروعا وخطيرا

إرتباط كامل النص:
http://www.arabpsynet.com/Samarrai/DocSamarraiWaMaSawahaa230-180219.pdf

شبكة علوم النفس العربية
نحو لياقة نفسانية أفضل
مؤسسة العلوم النفسية العربية
معا ... نذهب أبعد
Arabpsynet